عودة الى خليل حاوي

ماجد السامرائي

«الجماهير التي يعلكها دولاب نار من أنا حتى أرد النار عنها والدوار؟»

(خليل حاوي)

- ١ -

في السادس من حزيران ١٩٨٢ ، وبينما كانت القوات الصهيونية تستبيح أرض لبنان . . وقف خليل حاوي ـ أحد اكبر شعراء عصرنا ـ معلناً احتجاجه الصارخ على ما يجري . . فانتحر . . .

ولم يكن هذا الفعل كبيراً على شاعر مثله . فهو منذ أن وضع اولى خطواته في طريق الحياة والشعر كان قد اختار « طريق الجلجلة » . . ولم يكن اختياره هذا سهلاً في عصر كعصرنا . .

وهو منذ أن كتب أولى قصائده ارتبط عنده فيها مفهوم الأرض بالانسان . . بل ونظر الى احدهما من خلال الآخر .

ويوم استباحوا الأرض في الغزو الأول على مرأى منه . كان قد وجد الانسان ، هو الآخر ، يتعرض للاستباحة ، والانتهاك ، والقتل . . فعاش حالة غريبة، كان يحس هذه الحالات مجتمعة في داخله ، ولا يدري كيف يحمي ذاته الحضارية (التي هي التاريخ والأرض والانسان) من الدمار الذي تتعرض له . . .

وحين عاد العدو بأبشع استباحة للأرض وما عليها ، وجدهم قد اقتحموا داخله ، مرة واحدة. فماذا يفعل ؟

إنه في كل ما كتب من شعر ، وعلى امتداد مسار حياته ، لم يعلق « الراية البيضاء» لا على شرفة حياته، ولا على شرفة الكلمات . . . فهو شاعر ترك كل صوت غير « صوت اليقين » الذي كان ينبعث: عنيفاً ، صريحاً ، حاداً، وواضحاً . . يقين الانبعاث، ويقين الثورة التي كان يريد لها أن تحرق كل ما على الأرض من يباس التاريخ وعصور الانحطاط . . . وهو « يقين النفس » التي امتدت جسراً بين « الشرق القديم » الذي أدار له ظهره واعلن مغادرته ، و« الشرق الجديد» الذي تتحقق فيه صورة « الانبعاث الحضاري » . فكان صوتاً متميزاً في عصر فقد التميز بالأشياء الايجابية . . كما كان علامة من علامات الزمن الشعري العربي الجديد.

وهكذا أرتقى ؛ بفعله الأخير هذا ، أعلى مدارج الحياة . . ومن هناك أعلن احتجاجه : عنيفاً صارخاً ، وصادقاً . . فلم يكن انتحاره منبعثاً عن احساس بعبثية الحياة والوجود . . بل كان ذروة الاحساس بالحياة ، بعلوها وشموخها ، وتحقيقاً لهذا « الوجود » على نحو خاص . . .

وهل كان في هذا غير التجسيد الفعلي بغير واحد من « رموزه التموزية »؟.

- ٢ -

كم هي عميقة وثرية . . صاخبة وعنيفة حياة الجيل الذي ينتمي اليه خليل حاوي !

فيوم ولد أبناء هذا الجيل كان الآباء يلملمون شتات أنفسهم، ومجتمعهم ، وحياتهم ، ومدنهم (أو قراهم) وقد خرجوا من فترة ظلام أسود، بلون الجهل والتخلف اللذين اطبقا على الحياة العربية قروناً . . فأسلمهم هذا « الخروج » الى « حرب كونية » لم تكن لهم فيها يد أو مصلحة . ومع ذلك كانوا (هم وارضهم وحيواتهم) بعضاً من وقودها . .

إذن ، ولد هذا الجيل بينما كان الآباء ينفضون الغبار عن الرؤوس والأرض، ويتطلعون الى عالم يأملون أن يبنوه لأبنائهم على ركام دمار ، اذا كان قد أزيل من الواقع فانه بقي ماثلاً في الأذهان ، بكل صور الرعب التي انفتح عليها . . . .

ونشأ هذا الجيل . . وكبر . وما كاد يعي أبعاد القصص التي يسمع أطرافها من الآباء، حتى وقعت الحرب ثانية ، لتهز كيانه الوجداني ، وتملأ روحه بالغضب.

ولأنه كان جيلاً يبحث عن « قيم جديدة » ، ويسعى الى تأسيس « حياة جديدة »، فانه سلك سبيل الثورة في الحياة ، باحثاً عن طريق جديدة لحياته ووجوده (الانساني والفكري والابداعي):

ـ كانت هناك القوة التي رآها وهي تسعى الى سحق انسانية الانسان ، فأراد أن يجعل من معطياته الفكرية والابداعية تحقيقاً

لتلك « المعادلة الصعبة » التي يضمن فيها الشرط الانساني لوجوده (كأمة لها ذاتها الحضارية وكيانها التاريخي) . . .

ـ وكانت ثورة هذا الجيل هي التعبير عن حيويته هذه التي أراد أن يهز بها الكيان السكوني للواقع الذي خرج منهكاً من حربين كونيتين لم تحلفا غير الدمار في الواقع ، والانسحاق في النفوس ، فكانت «روح الثورة ، التي استلهمها هذا الجيل ابداعاً يعزز قضيته في الحياة : قضية الانبعاث في أمة كان قد تمزق تاريخها الواحد على محاور من : التجزئة ، والتخلف ، والاستعمار .

ـ وهو جيل انطلق في عمله هذا (على مستوى الابداع) من ايمان جذري وعميق بحس المسؤولية التاريخية . . . فلم يدر ظهره للواقع (كما فعل الغاضبون في الغرب)، انما اعتبر الواقع قضيته . ومن هنا فهو ان كان قد عاد الى التاريخ فمن خلال الواقع الذي يعيش . . . وان نظر الى المستقبل فمن الموقع نفسه كان التوجه . . .

فهو جيل لموقفه دلالة . . هي دلالة من يبدي البطولة ليؤكد عمق الانتماء الى القضية التي يعمل من اجلها . .

ـ ٣ ـ

إذا كان «خليل حاوي» قد بدأ حياته الابداعية بمشهد رائع من خلال ما مثله بديوانيه : « الناي والريح » و « نهر الرماد » من تجربة شعرية فريدة في شعرنا المعاصر، فانه قد ختم حياته بمشهد مأساوي، قد لا نجد نظيراً له الا في « المآسي الكبرى » التي عرفتها الآداب العالمية . . .

فهو قد بدأ من ذلك « المعنى الحضاري » الجديد الذي رأى أن « الشرق » ينبغي أن يتفتح عليه ليرى صورة غده ، حيث الانبعاث عبر ذلك الأفق من « الرمز التموزي » الذي يعود بالانسان الى الايمان بالقيامة والتجدد . . . وانتهى ـ بعد طول مسير وعميق مسار ـ الى أن كل ما حوله يهدد الحياة بالزوال .

ولم يكن من طبعه التكيف مع الظروف . .

كان جبلياً لا يعرف للحياة سوى الوجه ونقيضه . . وكان قروياً مشاكساً ، وانساناً كل ما اكتسب من الحياة « الكلمة » و« الموقف » . . ـ فكانا رأس ماله الكبير . . فاذا هما « ثنائية » حياته التي لا يداخلها شيء من تناقض، أو عامل من شك . . .

فهو شاعر افلت من كل شيء الا من « يقين نفسه » . . .

ولم تكن الحياة في نظره « حلماً » بل كانت « صراعاً » . ومن هنا انشق رمزه الشعري الأول: «السندباد» . .

ـ ٤ ـ

فجأة خذلته الحياة . . .

وبالرغم من كل ايمانه ، وصبره ، وعناده فانه وجد نفسه ، على حين غرة ، في عداد جيل ضائع . . . لعل « صدمة الواقع » كانت اكبر من طاقته على التحمل ، وقدرته على المواجهة . فحتى ثورته أصبحت « ثورة غربة » . وجد المعاني أمامه وفي محيط حياته قد تغيرت . . فأصبح اكثر قلقاً ، وأشد حساسية . . .

من هنا تولدت في حياته حالة حادة من التوتر وهو يجابه «قيماً جديدة » . . . وقد فقد أيامه . . ليجد نفسه في مواجهة الكثير من حالات الشك ، وأمام اكثر من تساؤل . . . فتبددت الطمأنينة من نفسه ، وتمزقت حجب الراحة . . . وحتى الايمان ببعض القيم اخذت جدرانه تتصدع .

هكذا وجد « خليل حاوي » نفسه ، مرة واحدة يقف على أرض كهذه ، مليئة بحالات التمزق والحيرة ، ولا تلقي في نفسه غير التساؤل . ربما لأنه كان الأكثر حساسية بين أبناء جيله . . . ولأنه لم يدخل في عمليات المضاربة ، والمزاودة ، والمساومة التي دخلها كثير من الشعراء العرب والسبب في هذا هو أنه لم يكن يعرف للحياة سوى طريق واحد . . .

ـ ٥ ـ

لو أتيح لك أن تجلس اليه ، وتستمع الى ما يقول . . .

ولو عدت وقرأت القليل (نسبياً) الذي كتبه منذ نكسة حزيران ١٩٦٧ وحتى « تحرير حياته »، ستجد أنه كان وحيداً . . .

ولكنه اذا كان قد رأى « الهزيمة » في الواقع فانه لم يحسها ، أو يعشها في أعماقه هو (كذات مبدعة) . كل ما حدث هو أن المرارة ازدادت في نفسه . . كما ازدادت نقمته على أشياء كثيرة . . وفقد الايمان بكثير من القيم . .

الا أنه ، بالرغم من هذا كله ـ على ما فيه من شدة وعنف ـ لم يرفض الانتماء الى مجتمعه ـ وان اعلن الثورة عليه والرفض لقيمه المستعارة . . .

وهكذا كانت « الرموز » عنده تتبدل مع هذا الاحساس بالتغير . . . فمن « السندباد » ـ رمز البحث والمغامرة ـ الى « سدوم » و« اليعازر » ـ حيث القيامة ـ الى « صالح وثمود » ـ حيث البحث عن « التكفير » و« الغفران » . . .

ـ ٦ ـ

إن تلك الريح التي هبت قوية لم تكن تريد لاعصارها ان يهدأ . . .

ولكن حين بدأ « فعل الكلمة » يتضاءل . . . يضمحل أو ينتهي . . . فماذا يفعل من لا يملك سلاحاً سواها ؟

هناك اليأس الذي يتهدد الحياة بالانهيار . . .

فماذا يفعل من اراد أن يخلق للحياة معنى متجدداً ؟

لقد كابر . . وتصاعد . . وارتفع الى أعلى ما في الحياة من صدق، وانغمر في أكثف ما في العاطفة من توهج . . . ومن هناك تحدى كل « الوقائع الزائفة » . . كل الوحشية . . . وكل الاستلاب ، الذي يجري اليوم ، لانسانية الانسان . . . معلناً صدقه مرة واحدة . . فأكسب حياته قوة في موقفها الموضوعي من كل ما يحيط بها .